التـــوكل

للأستاذ محمود شلبى

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب قالوا ومن هم يارسول الله قال هم الذين لايكتوون ولايسترقون وعلى ربهم يتوكلون . (مسلم) .

قال النووى : اختلفت عبارات العلماء من السلف والخلف فى حقيقة التوكل ، فحكى الإمام أبو جعفر الطبرى وغيره عن طائفة من السلف أنهم قالوا لايستحق اسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى من سبع أو عدو حتى يترك السعى فى طلب الرزق ثقة بضمان الله تعالى له رزقه ، واحتجوا بما جاء فى ذلك من الآثار . وقالت طائفة : حده الثقـــة بالله تعالى والايقان بأن قضاءه نافذ واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم فى السعى فيما لابد منه من المطعم والمشرب والتحرز من العدو كما فعله الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم أجمعين .

قال القاضى عياض : وهذا المذهب هو اختيار الطبرى وعامة الفقهاء . والأول مذهب بعض المتصوفة وأصحاب علم القلوب والإشارات . وذهب المحققون منهم إلى نحو مذهب الجمهور . ولكن لايصح عندهم اسم التوكل مع الالتفات والطمأنينة إلى الأسباب ، بل فعل الأسباب سنة الله وحكمته والثقة بأنه لايجلب نفعا ولا يدفع ضرا ، والكل من الله تعالى وحده .

قال الإمام القشيرى : اعلم أن التوكل محـــله القلب ، وأما الحركة بالظاهر فلا تنافى التوكل بالقلب بعد ماتحقق العبد أن الثقة من قبل الله تعالى ، فإن تعسر شىء فبتقديره ، وإن تيسر فبتيسيره .

وقال سهل بن عبد الله التسترى

رضى الله عنه : التوكل الاسترسال مع الله تعالى على مايريد .

وقال أبو عثمان الجبرى : التوكل الاكتفاء بالله تعالى مع الإعتماد عليه .

وقيل التوكل : أن يستوى الاكثار والتقلل .

لعل مشكلة التوكل من أدق وأوسع مشاكل المسلمين على الأطلاق .

وهى أمر ينبغى الفصل فيه، والقضاء على الاختلاف فيه ، رحمة بالناس ، وأخذا بأيديهم إلى حقائق هذا الدين الحنيف .

دعا الله تعالى إلى التوكل فى الأمور كلها ، وجاء كتابه ناطقا بذلك ، ومن ورائه أحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم .

وبدأ المسلمون يفهمون فى التوكل مفاهيم شتى ، كل يفلسفه حسبما يراه .

ومن هنا كانت هذه العبارات المختلفة فى تعريف التوكل .

ومضى الزمن فحمل الينا مخلفات المسلمين فى الموضوع ، فجاءت متضادة متضاربة ، بل تكاد تهدم بعضها بعضا .

فهل هذا صحيح ؟ .

كلا . إن كل حقيقة اختلف فيها ، إذا تدبرت فى أقوال الناس فيها ، اضطربت معك والتوت عليك. حتى تضعها على هذه القاعدة ، فإذا هى تتجلى ولا خلاف فيها .

تلك القاعدة هى أن الحق واحد ، والناس يختلفون فى فهمه .

ولقد عانت البشرية من ذلك ، وما زالت تعانى ، وسوف تعانى أبدا من هذا الأمر ، أمر اختلاف نظرة الناس إلى الشىء الواحد .

الحق واحد والناس يختلفون فى فهمه .

خذ مثلا الحقيقة العظمى « الله » ثم أنظر كيف أختلف الناس فى فهمها ، تكاد تدور رأسك من هول ماترى وتسمع .

كل إنسان يفهم الله فهما غير الآخر ، ولن تستطيع توحيد الخلق على فهم واحد أبدا .

وهكذا كل حقيقة ، وهكذا موقف الناس فيها دائما وأبدا .

ومن حقائق هذا الدين حقيقة التوكل ، وقد أصابها ما أصاب سواها من الحقائق .

فعرفها المسلمون تعاريف شتى ، إلا أنها تتلخص فى أتجاهين رئيسيين .

الاتجاه الأول : أن التوكل هو ألا يخالط قلبك خوف غير الله تعالى حتى تترك السعى فى طلب الرزق ثقة بضمان الله تعالى لك رزقك . وإلى هذا يميل جمع من المتصوفة(١) .

والاتجاه الثانى : أن التوكل حده الثقة بالله تعالى والإيقان بأن قضاءه نافذ واتباع السنة فى السعى فيما لابد منه من المطعم والمشرب والتحرز من العدو مما فعله الأنبياء . وهذا الاتجاه هو اختيار عامة الفقهاء .

فأين الحق من هذا كله ! .

الحق أن هؤلاء أصابوا وهؤلاء أصابوا وإن بدا بينهما الاختلاف .

حيث يمكن التوفيق بين المذهبين بالتدقيق والتحقيق لا بالتلفيق .

ذلك أن الشخصية المتوازنة هى الشخصية المرغوب فيها فى هذا الدين .

ويشير إلى ذلك المعنى الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » .

فالاسلام فى جوهره وحقيقته يريد من المسلم أن يكون متوكلا على الله دائما وذلك يكون بقلبه ، فيربطه على الله ، ويصله بالله ، وبذلك يستمد من الله قوته ، ويأخذ منه سبحانه الطاقة اللازمة ليندفع بها فى الحياة

فإذا ماتم للمسلم ذلك ، وهو مايوجهنا الدين اليه دائما ، وينميه فى نفوسنا ، بإدامة الذكر ، والاكثار من الصلاة ، وغير ذلك من وسائل توصل العبد بربه ، إذا ماتم للمسلم ذلك ، فعليه أن يندفع ، أن يتحرك أن يكون حيا كأى شىء حى .

---

(١) المجلة : لم يقل أحد من المتصوفة أبدا بترك الأسباب . ومن قال بهذا فليس بصوفى . . فالصوفى هو من أقتدى بالكتاب والسنة وتذوقهما وعاش فى نورهما وإلهامهما .

ذلك أن الحى كائن يتحرك والميت كائن لا يتحرك .

فعليك كمسلم أن تتحرك ، وهو مايسميه القرآن « العمل » ومالعمل الا الحركة . لأنه لا يتصور عمل بلا حركة .

ولكن أى عمل ؟

العمل الصالح . الذى فيه صلاح نفسك وصلاح مجتمعك .

أرأيت ؟

هذا هو التوكل .

قلب موصول دائما بالله . وجسم يعمل لله . وهذا هو سر تكرار هذا التعبير فى القرآن الكريم دائما وأبدا « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

فلا اختلاف إذا بين الذين قالوا التوكل هو ترك الأسباب . والذين قالوا التوكل هو الأخذ بالأسباب .

وإنما الخلاف آت من اختلاف فهمهم فى التوكل .

أولئك يريدون اعتمادا تاما على الله فيغمضون من أجل ذلك أعينهم عن الأسباب . وتلك نظرة فيها شطح وإسراف فى التعبير . وإن كانت فى ذاتها صدقا وحقا .

وهؤلاء يريدون اعتمادا على الله مع الأخذ بالقانون الطبيعى الذى وضعه الله للحياة ، وذلك أقرب إلى الحق وأهدى سبيلا .

ذلك أن التوكل شىء غير العمل لكل مكان معلوم .

التوكل عمل قلبى موضعه القلب شأنه فى ذلك شأن النية .

فان قيل أن النية هى ترك العمل بالكلية ، صح أن يقال أن التوكل هو ترك العمل بالكلية .

وهذا إسراف فى القول وشطط فى التعبير .

أما العمل فموضعة جسم الانسان القلب يتوكل ، والجسم يعمل هما شيئان متباينان ، إلا أنهما متعاونان . وقد فصل فيهما القرآن الكريم حيث قال وكرر ، مافال « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

ومن هنا يزول الخلاف فيما اختلفوا فيه .

والآن ماهو التوكل ؟ .

التوكل هو أن تربط قلبك بربك

(البقية ص ٧١)